معركة إنسانية خالدة

في أفريقيا الشمالية العربية

الأستاذ توفيق محمد الشاوى

لا شك في أن جهاد العرب والمسلمين في سبيل حريتهم وسيادتهم ضد الاستعمار الأوربي في هذا العصر هو معركة من أروع معارك التاريخ وأبقاها أثراً ، لا لأنها معركة عنيفة جبارة يصلى نارها ملايين من البشر ، ويمتد ميدانها إلى جميع أنحاء الوطن العربي الإسلامي فحسب ، ولكن لأنها معركة فذة في أسلحتها ، خطيرة في نتائجها وآثارها . أما أسلحة المستعمرين فهي أسلحة فتاكة مادية ، لا تقتصر على الجيوش وسلاحها الذي يقتل الآمنين السالمين قبل المجاهدين المحاربين ، ولكنها تشمل « السياسة » بما تستخدمه من أحط الوسائل في محاربة أخلاق الأمة بالفساد والانحلال ، ووحدتها بالتفريق والشقاق ، وشجاعتها بالقتل والنفي والسجن والتجويع ، وإنسانيتها بمصادرة الحريات وسلب الحقوق وانتهاك الحرمات . وأما هدفهم ، فهو السلب المنظم والسرقة الصريحة باسم التعمير والاستقلال ، والهدم والإفناء باسم « التمدين » و « الإنشاء » .

أما الجانب المشرق في هذه المعركة الخالدة فهو جهاد العرب والمسلمين وثباتهم في ميدان الشرف والكفاح في سبيل أسمى غاية ، في سبيل الحرية الإنسانية وحقوقهم الطبيعية ، وفي سبيل المبادئ الإنسانية السامية التي تكفل لهم حقوقهم وحرياتهم . وسلاحنا في ذلك الكفاح هو قوميتنا ومثلنا الروحية العليا التي عوضتنا عن أسلحتهم المادية أسلحة روحية سامية ، هي الإيمان بالحق الذي نكافح من أجله ، وحب الموت والتضحية في سبيله ، واحتقار للحياة المادية الشهوانية التي تستسيغ الذلة والعبودية ، أسلحة قوية سيكون لها النصر برغم طول الكفاح ، وشدة البلاء ، وكثرة التضحيات .

تأمل هذه الحقائق ناطقة في معركة إفريقيا الشمالية بين العرب والمستعمرين من الفرنسيين والأسبانيين والإيطاليين وأشباههم ، وخاصة في الجزائر وشقيقاتها حيث يتكلم الفرنسيون عن « مشكلة » إفريقيا الشمالية ، وكلمة « مشكلة » إنما تدل على أزمة حادة تصيب سياستهم الاستعمارية وفشل خطير يهددها ، فما الذي أصابهم بهذا الفشل ورماهم بتلك الأزمة ؟ لقد صرح أحد زعمائهم في الجمعية الاستشارية بالحقيقة مستورة ملفوفة حين قال « إن مجهود فرنسا الاستعماري تعترضه صعوبات « خطيرة » أهمها الوحدة العربية ، والمجاعة ! أما الوحدة العربية فتشير إلى القومية العربية بكل خصائصها وأسسها ، وخاصة أساسها الروحي وهو الدين بمبادئه ومثله العليا التي يتسلح بها المسلمون في كفاحهم ، فأي اعتراف بقوة هذه الأسلحة و « خطورتها » أبلغ من هذا ؟ ليس ذلك فقط ، ولكن بجانب هذا اعتراف آخر بفشل أسلحتهم الاستعمارية الوحشية التي عبر عنها بكلمة « المجاعة » ، لأن المجاعة هي النتيجة الطبيعية للسياسة الاستعمارية الغاشمة ، والاعتراف بها أبلغ رد على ما يسمونه السياسة الإنشائية والعمل التمديني الذي قامت به فرنسا والذي انتهى بعد قرن من الزمان بالمجاعة ، لأنه ليس في حقيقته إلا استغلالا همجياً حقيراً

ونحن العرب والمسلمون نلمس من هذه الاعترافات بشائر نصرنا في هذه المعركة الإنسانية الخالدة التي ستكون نقطة التحول في الحضارة الإنسانية من المبادئ الأوربية المادية الاستغلالية الاستعمارية الهمجية ، إلى مبادئ قوميتنا وحضارتنا الإسلامية الروحية السامية التي عبر عنها أبلغ تعبير عالم الجزائر ورئيس جمعية علمائها المسلمين بقوله : « إن الأمة الجزائرية يجب عليها بحكم دينها أن تحيا من كل من يسا كنها حياة الإحسان والخير والرحمة فتحسن وتطالب بالإحسان ، وتبذل الخير والرحمة وتطالب غيرها بالخير والرحمة ، وإذا قامت بواجب حيوي مشترك كان من الإنصاف لها أن تتمتع بالحقوق الحيوية المترتبة على ذلك الواجب ، وأن تساوى غيرها في الحياة كما ساوته في الواجب ، مع الاحتفاظ التام بمقوماتها الطبيعية التي هي : الإسلام والعروبة وشخصيتها كأمة مستقلة ، وهذا هو ما تقتضيه قواعد الإنسانية وقوانين العدل والإنصاف ، هذا هو إيماننا العميق بمبادئنا الإنسانية السمحاء ، وهو الذي سيكفل لنا النصر القريب الحاسم ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

توفيق محمد الشاوى
مدرس بكلية الحقوق بجامعة فؤاد